الصلات الأدبية بين الشرق والغرب وعناصر تكوين صورة الآ خر العربي لدى الأأوروبي

لويزة حوفاف طالبة دكتوراه جامعة المسيلة

الملخص:

كانت العلاقات والحوارات القائمة بين العرب وأوروبا محلّ اهتمام ودراسة قديما وحديثا، نظرا إلى أنّه كان لوجود هذين القطبين الهامّين الدور الأهم في تغيير ورسم تضاريس الحضارة الإنسانية ككلّ، وهما متمثلان في الضفتين المتقابلتين المشكلتين لثنائية (شرق/غرب): الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي، بما يجمعهما من علاقات وتصورات حملها كل منهما عن الآخر المختلف دينًا وجنسًا وفكرًا وحضارة. فهذه الإشكالية (الصورة) نشأت بين هذين الطرفين وتعدّدت مصادرها ودوافعها، مما فرض حتمية الاتصال، وبناء علاقات متنوعة ومستمرة تقوم على التبادل الحضاري، الذي يتحكم فيه منطق القوة والضعف. وهذا ما يفسّر اندفاع أوروبا للنّهل من معين حضارة عربية خصبة وثرية، في وقت كانت هي تتخبط في الجهل والظلام، فكان الجانب الأدبي من أهم المصادر الناقلة لصورة العربي المسلم إلى أوروبا، **فكيف تشكّلت هذه الصور المختلفة؟ وما دور الفعل التثاقفي في بنائها، وما هي الآثار المترتبة عليها قديما وحديثا؟** هذا ما سأحاول مناقشته والإجابة عنه في هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الصلات الأدبية/ الشرق/ الغرب/ الصورة/ الآخر.

Literature connections between the east and the west and its role in shaping the Arabs image for the Europeans:

Abstract:

Relations and dialogues believing the Arabs and the European always took a salient place in ancient and modern studies

considering the important role of these two factors in both changing and shaping the features of all humans civilizations , the east and the west represent two sides of one coin , the Arabic Islamic east and the European west , considering the alliances and the different perspectives taken from one another that are different in religion , sex , civilizations , and their ways of thinking , so this problematic or image grew between these two and its sources varied also its motives , which forced the inevitability of connecting and building different onging associations that are based upon intercultural exchange that is controlled by the logic of power and weakness .this explains why the Europeans had this motive to study the Arabs rich civilizations at the time where it was struggling in darkness and ignorance , so Arabic literature was the most significant source that helped sculpture the Muslim Arabic image to the Europeans.

So how these different images did were created? And what is the role of cultural intercultural exchange in building this image? And what are its different effect in both ancient and modern times?

Keywords: literature connections / east / west / image

كانت العلاقة بين العرب وغيرهم من الأمم محكومة في غالبها بقانون الدفاع عن النفس والتزام الحدود إلى جانب تميزها بالطابع الاقتصادي المتمثل أساسا في التجارة، لكن مع مجيء الإسلام بوصفه الدين المكمّل للديانات السماوية السابقة، انطلق الرسول صلى الله عليه وسلم للعمل على نشره وترغيب الناس في اعتناقه، هذه الرسالة التي لم تكن خاصة بشعب أو جنس معين، كما لم تكن محصورة في منطقة جغرافية محددة، بل كانت عامة وتهدف إلى تحقيق دين عالمي لا يستثني أحدًا، معتمدًا في ذلك على الفتوحات الإسلامية التي مسّت عدة مناطق من العالم من بينها أوروبا، التي أخذت تكوّن صورة عن الشرق« **بداية من القرن الثاني عشر، ثم توسّعت في القرنين الثالث والرابع عشر، لتمتد حتى القرن الثامن عشر الذي يعتبر قرنًا مختلفًا إلى حدّ ما، وحتى العصر الاستعماري... هذه الرؤية تنطلق من عداء واسع للنبي الذي أوقف بنبوءته الكاذبة – بزعمهم– تطور الإنسانية تجاه المسيحية».**[1]

[1] محمد راتب الحلاق، نحن والآخرون، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997، ص 16.

فالصورة التي رُسمت لهذا العربي كانت انطلاقا من الدين الإسلامي، الذي أصبح في رأي الأوروبي منافسًا لديانته المسيحية ومهدّدًا لوجودها، مما شكّل نظرة عدائية عنصرية تجاه العرب وصاحب الدعوة الإسلامية.

ويعدّ الكاتب الإيطالي دانكونا (D'Ancone) من أوائل المنادين بالآراء المتطرفة والمعادية لشخص النبي الكريم والدّين الإسلامي، خاصة في كتابته القديمة باللغة الإيطالية والموسومة بـ"أسطورة محمد في الغرب" (La Légenda Mahomet Occident)، ثم اتسعت وأخذت في الانتشار أكثر في كتابات جيوبرت (Guilbert) وهيدبرت (Hildebert). فهؤلاء وغيرهم يشيرون – بتحامل– إلى أن مجيء النبي محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الرسالة ارتبط بنيته في تحقيق الشهرة والطمع في التمتع بالجاه والسلطان. [2]

هذا وقد صور السير ويليم ميور (Sir William Miur) محمدًا صلى الله عليه وسلم في دراسة قام بها بعنوان: "حياة محمد وتاريخ الإسلام" (La Vie de Mahomet And Histiry Of Islam) على أنه أداة من أدوات الشيطان، ويبدو أنه لم يجد حرجًا في إطلاقه هذا الحكمَ غير المبرر سوى بتعصبه الأرثوذكسي الصليبي، القائم على العنصرية والتفريق بين المسيحية والإسلام الذي نسبت إليه الطبقية الاجتماعية، كما جرّدت دعوته من مقوماتها وأسسها الدينية.[3]

ومع هذا فالأحكام السابقة لا تنفي وجود نظرة إيجابية، وصور حسنة عن الرسالة وصاحبها، الذي أكّد الدارسون المعتدلون على أمانته وأخلاقه الفاضلة، متصّدين بذلك لزملائهم الذين حكّموا العاطفة العصبية الدينية بالأساس، نافين الأحكام المسبقة التي أطلقت عليه لأنه في « **فؤاد ذلك الرجل الكبير، ابن القفار والفلوات، المتوقد المقلتين العظيم النفس، المملوء رحمة وخيرًا وحنانًا وبرًا وحكمة... أفكار غير الطمع الدنيوي ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه، كيف وتلك نفس صامتة كبيرة، ورجل من الذين لا**

---

[2] عبد الجبار ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد ، 1981، ص 87.

[3] المرجع نفسه، ص ص 99–102.

يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين».[1] ويمكن اعتبار هذا ردًا مناسبًا على الرأي المدّعي بأن النبي الكريم كانت تستهويه الشهرة وتجتذبه أطماع خاصة، فهو رجل الدولة الذي لا مثيل له، حيث« **يراه الكاتب فولتير (Voltaire) رجلا متحمّسًا لدعوته، إذ لم ينشر الإسلام في أكثر نصف المعمورة بقوة السلاح، بل بقوة الحماس وقوة الإقناع».**[2] مما يؤكّد صورة القائد الحكيم والمسالم، المتجسدة خصوصا في قدرته على توحيد القبائل المتفرقة والتي يسودها طابع النزاعات والعصبية، كل هذه الإنجازات العظيمة تجسدت مع رجل بسيط متواضع. ونستشهد في هذا المقام بقول الكاتب كارليل: (Carlyle) « **إني لأحب محمدًا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقلّ الرأي لا يعول إلا على نفسه، ولا يدّعي ما ليس فيه، ولم يكُ مبتكرا ولكنه لم يكن ذليلا...».** [3]

فصفاته الحميدة صلى الله عليه وسلم كانت محلّ إعجاب الكثير من الكتّاب والشعراء الأوروبيين، منهم الشاعر الألماني والفيلسوف غوته (Goethe) الذي تأثر بجوانب من شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم واحتذى ببعض مبادئ الدين الإسلامي، وبعض آيات القرآن الكريم، وهذا ما جعل« **علاقته بالإسلام ونبيه محمد ظاهرة من أكثر الظواهر مدعاة للدهشة في حياة الشاعر، فكل الشواهد تدل على أنه كان في أعماق وجدانه شديد الاهتمام بالإسلام، وأن معرفته بالقرآن الكريم كانت بعد معرفته بالكتاب المقدس، أوثق من معرفته بأي كتاب من كتب الديانات الأخرى».**[4]

---

[1] عبد الجبار ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي ، ص 97.

[2] محمد راتب الحلاق، نحن والآخر، ص 117.

[3] المرجع السابق، ص 137.

[4] حبيب بوهرور، حضور الآخر العربي في المتن الأدبي الغربي الحديث، محاضرات السنة الثالثة في الأدب المقارن.

وهو ما انعكس بوضوح في قصائده خاصة تلك التي حملها ديوانه المشرقي للمؤلف الغربي، والتي بدا فيها اطلاعه على المجتمع الإسلامي وسيرة وأخلاق نبيه المتجلية في قصيدة "أغنية محمد"، وكذلك قصيدة "حيوانات مفضلة" التي يقول في بعض مقاطعها:[5]

ثم بعده دخل الذئب في وجل

وكان محمد قد أمره:

" دع هذه النعجة للرجل الفقير

وخذ غيرها من الغني"

وهاهي القطة أخيرًا

تهرّ حول سيدها وتملقه

فهناك دومًا حيوان مقدس

قد مسح بيده عليه نبي

وبهذا كان للجانب الديني دور في تكوين صورة العربي لدى نظيره الأوروبي ممثلا أولا في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، غير أن هذه الصورة لم تبق محصورة في هذا الجانب، وهذه الشخصية بالتحديد، بل اتسعت لتشمل سكان المنطقة العربية بشكل عام، بفعل الاحتكاك عبر العصور، حيث كان لانفتاح الآداب على بعضها، وتلاقحها الأثر البالغ في تكوين مختلف الصور، وعلى الرغم من أن الأدب العربي ذو تاريخ ضارب في القدم، وعمر طويل لا يزال ممتدًا، إلا أنه « **لم يحدث عبر التاريخ أن انغلق على نفسه وانعزل تمامًا عن آداب الأمم التي تحيط به، ولا تزال نصوص هذا الأدب في كل عصر من عصوره تحمل من الإشارة والشواهد ما يدل على قيام صلات قوية أو ضعيفة بينه وبين الآداب الأخرى، وهما العصر العباسي والعصر الحديث**».[1] هذا الأخير الذي شهدت فيه المنطقة تكالب الدول الاستعمارية عليها، وشنّ العديد من

---

[5] أبو العيد دودو، من روائع غوته، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007، ص 137.

[1] عبد الحكيم حسان، صلات الأدب العربي بالآداب الأجنبية، ملاحظات حول طبيعة هذه الصلات وظروفها وآثارها، أعمال الملتقى الدولي حو ل الأدب المقارن عند العرب، عنابة، 14-19 ماي 1963، ص 82.

الحملات العسكرية التي لم يكن للعرب فيها حظ الانتصار وتحقيق الغلبة، فاتصلوا بالآداب الأوروبية الحديثة من مركز المغلوب، والمغلوب مولع عادة بتقليد الغالب، فلم تكن له في العصر الحديث حرية الاختيار وانتقاء ما يريد، التي كانت له في العصر العباسي، الذي كان أدبه يتصل بالآداب الأخرى من مركز قوة وحرية التبادل الثقافي والأدبي أخذًا وعطاءً وتأثيرًا، لما تتميز به من ازدهار وتطور، مما أدّى إلى لفت الأنظار إليه والانجذاب نحوه للنهل منه والتأثّر به ومحاكاته.[2]

وفي المقابل لا يمكن إغفال الدور المهم والأثر البالغ الذي كان للأدب العربي الأندلسي الذي سكن أوروبا وتمكّن من العبور إلى بلدانها المختلفة والتأثير في آدابها شكلا ومضمونًا، حيث قام عرب الأندلس بنشر حضارة مغايرة لما كان معروفًا في أوروبا سابقًا؛ إذ حملت معها ألوانًا مختلفة من أشكال التعبير وطرائقه وأساليبه، وابتدعوا شعرًا عاطفيًا غنائيًا يعتمد على انتقاء المعاني، ويحرص على حسن صياغتها لجعلها ملائمة للحالة الفكرية للمجتمع الذي اكتشف حاجته إلى مثل هذه الأشعار، فتجاوب معها بعدما استشف أبهة الشرقيين، وتأثر بسمو مشاعرهم، وفطن عندئذ لخشونته البربرية[3] التي أفرزتها السيطرة الإقطاعية السائدة في أوروبا آنذاك، مما جعل الشعراء الأوروبيين في ذلك العصر يلجؤون إلى العرب لمحاكاتهم في شعرهم الغنائي الذي وجدوا فيه متنفسًا يساعدهم على تجاوز معاناتهم النفسية، وذلك «**بالبحث عن آلات العزف التي ينشدون شعرهم على وقع أنغامها.**»[4] وقد وجد الشعر العربي الأرض ممهدة للانتشار والتوسع في ظل الظروف التي يعيشها الأوروبي المحروم من لذة العاطفة، فكان الشاعر العربي بمثابة القدوة، حيث اتبعه الأوروبي ونسج على منواله منظوماته الأوروبية، وقام بهذه

---

(2) المرجع السابق، ص 84.

(3) ينظر: محمد مفيد الشوباشي، رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، مصر، ص 107.

(4) المرجع نفسه، ص 120.

* **التروبادور: (Troubadour)**: مكونة من Troba من ينظم الشعر وDor مقطع لاتيني دال على اسم الفاعل والتروبادور حركة شعرية ظهرت في أوروبا خلال القرنين 12 و 13، حملت فكرة جديدة سامية عن الحب والمرأة.

المهمة وأبدع فيها شعراء التروبادور (*Troubadour*)* في إقليم بروفانس (*Provence*) الذي شهد انبثاق طراز جديد من الأدب يختلف تماما عن الأدب الأوروبي ويشبه

إلى حدّ بعيد الأدب العربي من حيث «**نظم الشعر المعبر عن العواطف الرومانسية بأسلوب رقيق مهذب، واستعمال القافية التي لم تعرفها أوروبا من قبل... حيث كان العرب أول من نقلها إليها**».[1] وقد استحسنها الأوروبيون وأعجبوا بها واعتبروها إضافة إيجابية إلى شعرهم، معترفين في ذلك بفضل العرب الجليّ، فهذا الشاعر جيفري تشوسر (*Geoffrey Chaucer*) مدين لهم بمعرفة القافية وباستعمالها على نسق الموشحات الأندلسية، مما طبع شعره بشيء من خصائص الشعر العربي.[2]

ولم يقتصر التأثير على هذه النواحي وحسب، بل تعداها إلى الجانب اللغوي حيث ساعد العرب الشعراء الأوروبيين على التخلص من اللغة اللاتينية في شعرهم وتوظيف اللغات المحلية (العامية) أداة للتعبير في قصائدهم على منوال الموشحات والأزجال الأندلسية، التي تجرأت على كسر تقاليد القصيدة الفصيحة.[3]

ومنه فإنه من الإنصاف أن نعترف بفضل الشعر العربي العظيم على الشعر الأوروبي في الخروج به من المشاعر الحربية البربرية، إلى عذوبة الأحاسيس الإنسانية ورقتها وتهذيب الذوق الأوروبي، ومساهمته في تفطين ذاك المبدع إلى أغراض تخدم طبيعته البشرية والإنسانيّة بالدرجة الأولى كالغزل مثلا وتمتعه بمختلف العواطف، كتعبيره عن عاطفة الحب والشوق والانتباه إلى سحر الطبيعة وانبهاره بها. وبهذا يمكن القول إن عالم الشعر في أوروبا قد تغير، بل وتطور بفعل هذه الصلات التي تجلّت آثارها بوضوح على النتاج الشعري الأوروبي المتأثر بنظيره العربي الأندلسي.

هذا ويرى بعض المتعصبين الأوروبيين أن الحديث عن الأثر الذي أحدثه الشعر العربي في شعرهم الأوروبي ليس ناجمًا عن دراسة واعية، وإنما كان الأخذ في الغالب بالظاهر الخادع، بل ويذهبون أبعد من هذا حين يزعمون أن تأثر الشعر الأوروبي بالعربي في أكثر من جانب لا يعدو أن يكون مجرد أسطورة لا حقيقة لها. ودليلهم على

---

[1] محمد مفيد الشوباشي، رحلة الأدب العربي إلى أوروبا ، ص 121.

[2] ينظر: المرجع نفسه ص 161.

[3] المرجع نفسه ، ص 161.

ذلك هو أن تلك الألوان الشعرية والأغراض المختلفة كانت موجودة في أوروبا من قبل، ولا فضل فيها للعرب عليهم، ويؤكدون على الاختلاف البيّن في الشكل والمضمون الناتج عن عدم اطلاعهم على أية قصيدة عربية، أو فهمهم للغة الشعر العربي حسب ما يدعيه الكاتب رينان (*Renan*) في قوله:« **أما عن ذلك التأثير الأجنبي الأدبي والمعنوي، فقد بولغ فيه كثيرًا، والحقيقة أن الشعر البروفانسي والفروسية الأوروبية ليسا مدينين في شيء للمسلمين... وليس هناك دليل ما على أن الشعراء المسيحيين كانوا على علم بقصيدة عربية واحدة، ولو حدث وكانوا على علم بوجود الشعر العربي، فمن المؤكّد أنهم لم يكونوا يستطيعون فهمه لغة ومضمونا».**[4]

لكن من الطبيعي أن هذا الزعم لا يمكنه الصمود طويلا أمام الحقيقة الصارخة بوجود أثر واضح لا مفرّ من الاعتراف به، وذلك بالوقوف على الأدلّة القوية على ذلك التغير في الشعر الأوروبي، ونقاط التشابه الكثيرة بينه وبين الشعر العربي، وإلا فكيف يمكن التسليم بتلك النهضة المفاجئة في ميدان الشعر والأدب وحتى الأخلاق والطباع بأوروبا، إذ لا يعقل أن تحدث النهضة هكذا بغتة دون إرهاصات أو مؤثرات.

وإذا كان الشّعر قد تعرّض للإنكار من قبل بعض الأوروبيين، فإنهم لم يستطيعوا إلغاء دور النثر العربي باعتباره موجهًا لا غير، حيث زعموا أن ألوان النثر التي قدمت إليهم من عند العرب كالقصص والروايات والحكايات، وحتى الأمثال والحكم قد تطورت على أيديهم تطورًا جذريًا.[1]

غير أنه من الواضح أن هذه الآراء قد غلبت عليها العاطفة الوطنية الأوروبية والنزعة العصبية الناتجة عن التعالي والنظرة الفوقية الموجهة إلى العرب، مما أفقد دراساتهم وآراءهم سمة الموضوعية.

وفي المقابل هناك فئة من الدارسين اعترفت بفضل الأدب العربي بشقيه النثر والشعر، وتعاونهما على تحقيق النهضة الأوروبية والرقي الحضاري بعد وفودهما إلى أوروبا بطريقين مختلفين، طريق اسبانيا وطريق المشرق، إثر الحروب الصليبية التي مكّنت الأوروبيين من الاختلاط بالعرب وأخذ آثارهم الأدبية وتسجيل انطباعاتهم عن الفرد

---

[4] المرجع نفسه، ص 117.

[1] ينظر: محمد مفيد الشوباشي، رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، ص 126.

العربي المسلم، والتأثر بأفكاره وسلوكاته وطباعه الاجتماعية ممّا أدى إلى محاكاتها ونقلها إلى شعوبهم.[2] فأوروبا لم تعد من هذه الحروب خالية اليدين« **لأنها جنت منها مكاسب حضارية لم تدخل في حسابها يوم أعدّت جيوشها لغزو العالم الإسلامي**».[3] ذلك أن الصليبيين استمتعوا بقراءة القصص والروايات العربية وحملوها معهم، فأعجب بها الأوروبيون وأقبلوا عليها منبهرين بذلك العالم الشرقي المختلف تمامًا في عاداته وتقاليده وسحره، مما ساعد على تكوين صورة للفرد العربي الذي ساعدت مؤلفاته على إظهار خصائصه وطبائعه، وقد ساهمت حركة الترجمة (La Traduction)* في توسيع دائرة الاطلاع وانتشار هذه الأعمال الأدبية بين الأوروبيين الذين لم يجدوا لها مثيلا في آدابهم المنغلقة، التي تفتقد للجرأة في التعبير وتعاني عقم الخيال، مما زاد فضولهم إلى البحث عن كل ما هو عربي، واستقباله وقراءته واستلهام الأفكار منه واستثمارها في إبداعاتهم وتحسين مستوى نتاجاتهم «**فكانت الأعمال الأدبية تنتشر في القرون الوسطى بسرعة مذهلة، فإذا صدر كتاب في القاهرة أو في مراكش عرفه أدباء باريس أو كولونيا في مدة لا تزيد عن المدة التي يستغرقها الكتاب الهام في ألمانيا من إحدى ضفتي الرون إلى الضفة الأخرى**».[4]

وقد ترجم عدد كبير من القصص العربية إلى الفرنسية، الألمانية، الإيطالية والانجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية. وهناك قصص أخرى عربية انتقلت إلى أوروبا بفضل الكاتب الإيطالي بوكاشيو (Pocachio) وغيره من الإيطاليين، وكان من بين هذه القصص والكتب المترجمة "كليلة ودمنة" و"ألف ليلة وليلة" (Les Milles et Une Nuit) هذه الأخيرة التي تعدّ من أروع وأهم الآثار، لما انفردت به من جوانب

---

[2] ينظر: محمد رمضان الجربي، الأدب المقارن، منشورات ELGA ، 2002، ص 61.

[3] طه ندا، الأدب المقارن، دار المعارف الجامعية، 1996، ص 239.

* **الترجمة** (*La Traduction*) سواء أكانت بمفهومها الدال على أنها النقل وإعادة صياغة وتقليد، أم بمفهومها الإيطالي الذي يصف المترجم بالخائن، و المشوه للأصل أحيانًا، فهي الباب الذي تلج من خلاله مختلف الحضارات والثقافات والآداب خاصة، وهي مفتاح ومحرك الأدب المقارن ومنطلق لعالمية الأدب.

[4] محمد مفيد الشوباشي، رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، ص 127.

وخصائص فنية جعلتها تستقطب اهتمام الأوروبيين إليها قراءةً ودراسةً وتأثرًا بها، فاستلهموا من قصصها مواضيع لرواياتهم موظفين شخوصًا وأماكن تشبه كثيرًا تلك التي توجد في قصص الليالي (Les Nuits) ولم يتأتّ لهم ذلك إلا بعد ظهور ترجمتها إلى اللغة الفرنسية لأول مرة سنة 1704 م على يد أنطوان جالان (Antoine Gallan) الذي قدم لها بقوله:«**إنها تبسط لقارئها عادات الشرقيين وأخلاقهم وشعائرهم الدينية، فالشرقيون جميعًا يظهرون فيها على ما هم عليه ابتداءً بالسلطان، وانتهاءً بأي شخص عادي، وهكذا فبإمكان القارئ أن يراهم هنا يعملون وأن يسمعهم يتحدثون، من غير أن يتكبد عناء السفر للبحث عنهم في بلدانهم**».[1]

وبهذا فإن قصص الليالي قدمت صورًا حية ومتنوعة عن المجتمع العربي الذي شغف به الأوروبي، وغرست عند الكثيرين حب الاطلاع والتشوّق لزيارة الشرق وأهله ليروا بأم أعينهم ما قرؤوه في هذا الكتاب الضخم، والذي عرفوه اختصارًا باسم "الليالي العربية"(Les Nuits Arabes)[2] هذه التحفة الأدبية النادرة التي كانت لها القدرة على قلب موازين الفنون النثرية الأوروبية؛ نظرًا لما تميزت به من خصائص فنية اكتشفها الأوروبي لأول مرة وانبهر بها وعمل على محاكاتها، ولابد أن أول لقاء مع النص يكون مع اللغة التي شكّلت واحدًا من أهم عوامل الانجذاب نحوها (القصص) فهي لغة تعتمد الألفاظ الدالة على المعاني الحسية في المقام الأول، وذلك لتقريب الموضوع المعبّر عنه إلى ذهن القارئ، وضمان تحقيق عنصر التشويق لديه إلى معرفة المزيد باستعمال لغة غنية بالصور المتحركة التي تعبر عن أدق الحركات والخلجات إلى أن يكتمل في ذهن القارئ المعنى المراد، والتوصل إلى استنتاج الرسالة المقصودة.[3] ولعل أكثر ما لفت انتباه الأوروبي إلى هذه القصص هو موضوعها الرئيس المتمثل في الحب والغرام وما يحيط بهما من مغامرات جنسية ومواقف ماجنة استطاع العربي أن يعبر عنها بكل جرأة، في حين حُظر على الأوروبي الخوض فيها، إلى أن جاءت قصص الليالي التي حطمت تلك القيود وحرضته على تغيير مفاهيم الحب البالية، لأنه وجد ما يبحث عنه في

---

[1]–محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، ص 146.

[2] المرجع نفسه، ص 146.

[3] ينظر: طه ندا، الأدب المقارن، ص 258.

مشرق حكايات الليالي، كما دعته إلى التعبير عن غرائزه ورغباته المكبوتة في كتاباته التي وظفت العربي كمفتاح لمعالجة أزمة الأوروبي المحروم، ممّا منحه حرية أوسع لطرق مثل هذه المواضيع التي جُعل المشرق العربي مسرحًا لها، بوصفه عالمًا سحريًا وجديدًا بخوارقه وطابعه الغرائبي المتجلّي بقوة في قصص الليالي مما شجع على تنشيط الخيال الأوروبي الذي تمكن من خلق فضاء رحب من الأحلام، تتحقق فيه الرغبات الدفينة النفسية والجنسية، هذا الفضاء الشهواني الحسي والمترف الذي يسكنه الملوك والأمراء والعفاريت والسحرة والنساء الجميلات المغريات والمثيرات للفتنة.[(4)]

وكان لتركيز قصص الليالي على المرأة وتصويرها أثر بارز في تكوين صورة عن هذه المرأة الشرقية التي كانت في نظرهم مهانة مظلومة لا يراعى لها حق، ولا يقام لها وزن بعيدًا عن الأغراض الجنسية، فحب العربي للمرأة حب حسي شهواني لا احتكام فيه إلى العقل، بل رُجّحت العاطفة على المنطق تمجيدًا للمشاعر الإنسانية التي بإمكانها أن تنحرف بالمرء عن غريزته الوحشية.[(1)]

وبهذا فحكايات ألف ليلة وليلة بتقنياتها، أسلوبها، مواضيعها، أجوائها العامة وشخصياته واستبطانها أغوار النفس البشرية بغرائزها وطموحاتها وأطماعها وعناصر الخير فيها على حدّ سواء كانت تكشف بلدانَ الشرق والحياة الجميلة المتميزة فيه لأول مرة.[(2)] كما تمكّنت من رصد صورة حية عن بلاد العرب على أنها« **أرض المخاطرات والمغامرات المغرية وموطن للحب والانفعالات القوية، إلى جانب الكشف عن صور القصور والسرايا والحريم وسوق الرقيق وبيوت البغاء وقوافل التجارة...** »**[(3)]** وكلّها مظاهر ميزت الحياة العربية بمختلف طبقاتها على عكس الآداب الأوروبية التي كانت تختص بالطبقة الأرستقراطية، ومن الواضح أن خصوبة الخيال التي ميزت قصص ألف

[(4)] ينظر: شريفي عبد الواحد،أثر ألف ليلة و ليلة في روايات الحب و المغامرات الفرنسية ص ص2،3. http://www.reefnet.gov ، 10جانفي 2010.

[(2)] ينظر: الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن، أصوله و تطور مناهجه، ط 4 ،مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ص 563.

[(3)] ينظر: محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، ص 146.

[(4)] شريفي عبد الواحد، المرجع السابق، ص 2.

ليلة وليلة، وتفرّد الأسلوب السردي من العوامل التي أكسبت الأوروبي مبادئ القص، وألهمته أساليب سردية جديدة مخالفة لما كان سائدًا من الأساليب الجامدة، فهذا الكاتب فولتير (Voltaire) يعترف بأنه « **لم يزاول فنّ القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة و ليلة أربع عشرة مرة.**»[(4)] كما نجد من جهة أخرى زائر الشرق العربي جيرارد دي نارفال (Girard Denerval) يصرّح بأنه منذ قدومه إلى مصر (القاهرة) وهو يتذكر قصص ألف ليلة التي لم تفارق ذهنه ومخيلته، حيث يرى في منامه كل شخوصها وعمالقتها الثائرة، وبهذا يكون قد امتلأ وتشبّع بقصص ألف ليلة و ليلة، يقول في مؤلفه "رحلة إلى الشرق" (Voyage De Orient):

« Depuis mon arrivée au Caire , toute les histoires des Milles et une nuit me repassent par la tête. Et je vois en rêve tous les dives et les géants déchainés me voilà en pleine Mille et une nuit. »[(5)]

ومنه فالصّور التي قدّمتها قصص "ألف ليلة وليلة" عن العالم العربي حمست الأوروبي وولدت لديه رغبة في زيارته واكتشاف المزيد عنه، ففتحت بهذا الباب واسعًا أمام الرحّالة الأوروبيين الذين قصدوا الشرق العربي شغفًا وتشوقا لرؤية ما قرؤوه عنه في صفحات كتاب الليالي، فخالطوا العرب وعاشروهم واطّلعوا على شعرهم ونثرهم ومارسوا عن قرب أساليب الحياة معهم، فعادوا إلى أوطانهم وقد تكوّنت لديهم صورة حملوها إلى شعوبهم تخصّ العربي في جميع نواحي حياته تقريبًا، من خلال ما ألفوه عنه وعن رحلاته إلى ذاك العالم، وقد لعبت قصص الليالي بما نقلته عن الشرق دورًا في ظهور حركة الاستشراق(L'Orientalisme) التي عرفت لأول مرة في أوروبا،[(1)] والتي اختصت بتوجّه الأعين إلى الشرق بالدراسة والتحليل، وقد انقسم المستشرقون (Les Orientalistes) في أثناء بحثهم إلى فريقين بالنظر إلى قصدهم ونيّتهم من وراء الاستشراق؛ فهناك من رغب حقا في الاطلاع على خبايا العرب والمسلمين وأسرارهم،

---

(5) طه ندا، الأدب المقارن، ص 262.

(2) *Nada Tomiche ,La littérature arabe traduite,ou la réception de l'imaginaire Oriental par l'Occident anglo-francophone,Colloque international de littérature comparée dans les pays Arab,Annaba 14-19 mai1983,p53.*

(1) ينظر: محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، ص 146.

والوقوف على طباعهم واكتشاف حضارتهم وأدبهم، وهناك من تعمّد الإساءة إليهم، غير أن لحركة الاستشراق أثرًا بارزًا وفضلا لا يمكن إنكاره في إخراج كنوز العرب المغمورة إلى الوجود وترجمتها ودراستها، إلى جانب المساهمة في نقل عدة صور عن المجتمع العربي سواء أكانت إيجابية أم سلبية، فقد تفرغ المستشرقون للبحث ومنحتهم أممهم المال والوقت، ووضعت تحت أيديهم المكتبات العامرة بالمخطوطات النادرة، وكلهم يعرف عدة لغات غربية وشرقية، فكان من الطبيعي أن تتسم آثارهم بسمات التحقيق والمثابرة والاطلاع والموازنة ومراجعة الأصول والمخطوطات الثمينة...[(2)]

وكانت من نتائج هذه البحوث آراء متنوعة ساهمت في كشف الشرق العربي وتسليط الضوء عليه في مختلف جوانب حياته التي شدّت إليها أنظار واهتمام الأوروبي، بناءً على ما صوّره المستشرقون وعرضوه من مواقف متباينة أدّت خدمة جليلة لأهلهم بالدرجة الأولى، فصورة الحياة العربية المترفة والثرية ولّدت لديهم أطماعًا استعمارية مهّدت لها وشجعتها صورة الشخصية العربية القابلة للاستعمار والمنشغلة بالأهواء والشهوات.

فكل هذه العلاقات الأدبية التي جمعت بين العرب والأوروبيين وما تبعها من عوامل ساعدت على رسم صورة العربي عند نظيره الأوروبي، أسست لظهور انطباعات عديدة ومتنوعة عنه، تجلّت أساسًا في كتابات ومؤلفات الأوروبيين، التي تظهر فيها الأحكام المتعلقة بالعربي والصور المرسومة عنه، وفق ما تقتضيه جدلية الأنا والآخر من مواقف متخذة في حدود ما تتطلبه الموضوعية وإن كانت هذه الأخيرة أساسًا قد يُلاحظ الابتعاد عنه في بعض الأحيان، وإضافة إلى ما سبق نشير إلى أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة وهي:

- العلاقات بين الشرق والغرب قديمة وضاربة في عمق التاريخ، إذ وجدت قبل الإسلام وتبلورت وازدادت نشاطا بعده.
- قامت جلّ هذه العلاقات على مواقف معادية للدين الإسلامي وصاحب رسالته محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(2) ينظر: محمد الطيب محمد النادي عبد النافع، إبراهيم عبد الرحيم يوسف، تاريخ الأدب والنصوص الأدبية، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، ص ص 727، 728.

- ساهمت الحركة الاستشراقية الواسعة التي ظهرت في أوروبا في تشكيل صور متعددة عن الآخر العربي المسلم، وكثيرا ما كانت صورا سلبية بدءا بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم.
- هذا الاتجاه مثلته مجموعة من المستشرقين المتعصبين العنصريين الذين يفرّقون بين المسيحية والإسلام، ويعملون على تشويه صورة المسلمين في العالم.
- ساهم النتاج الأدبي في تكوين صورة العربي لدى الأوروبي خاصة الأدب الأندلسي بحكم وجوده القريب من الأوروبيين.
- ساهم الشعر العربي في تغيير الذوق الأدبي للأوروبيين وكذا لغة تعبيرهم.
- أثرت قصص ألف ليلة أو الليالي في الأدب الأوروبي تأثيرا واسعا وقويا، وغيّرت هي الأخرى أنظمة السرد وتقنياته ونشطت لدى الأوروبيين عنصر الخيال والجرأة في التعبير.
- أسقط الأوروبي ما قرأه في عوالم هذه القصص على حياة العربي واستلهم منها صورا متعددة خاصة فيما يتعلق بالمرأة.
- انبهار الأوروبي بالليالي فجر لديه رغبة في زيارة المشرق العربي للتعرف عليه أكثر وملامسة الحياة العربية عن قرب.

مراجع البحث:

- **باللغة العربية:**

1- أبوالعيد دودو، من روائع غوته، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007.

2- الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن: أصوله وتطور مناهجه، ط 4، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر.

3- حبيب بوهرور، حضور الآخر العربي في المتن الأدبي الغربي الحديث، محاضرات السنة الثالثة في مقياس الأدب المقارن.

4- شريفي عبد الواحد، أثر ألف ليلة وليلة في روايات الحب والمغامرات الفرنسية، ص ص 2، 3 10 http://www. reefnet.gov . جانفي 2010.

5- طه ندا، الأدب المقارن، دار المعارف الجامعية، 1996.

6- عبد الجبار ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، 1981.

7- عبد الحكيم حسان، صلات الأدب العربي بالآداب الأجنبية: ملاحظات حول طبيعة هذه الصلات وظروفها وآثارها، أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، عنابة، 19-14 ماي 1963

8- محمد الطيب محمد النادي عبدالنافع، إبراهيم عبد الرحيم يوسف، تاريخ الأدب والنصوص الأدبية، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء.

9- محمد راتب الحلاق، نحن والآخرون، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997.

10- محمد رمضان الجربي، الأدب المقارن، منشورات ELGA،2002.

11- محمد مفيد الشوباشي، رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، مصر.

12- محمود المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، عالم المعرفة، الكويت، 1992.

- **باللغة الفرنسية:**

- Nada Tomiche, La littérature arabe traduite, ou la réception de l'imaginaire Oriental par l'Occident anglo-francophone, Colloque international de littérature comparée dans les pays Arabes, Annaba, 14-19 Mai 1983, p 53.